في العلاقة بين تحليل الخطاب والتداولية

ـ نموذج تطبيقي من جريدة التبكيت والتنكيت ـ

هدى عبدالغني باز

تقديم:

تتخذ هذه الدراسة من المقال الافتتاحي للعدد الأول من جريدة التبكيت والتنكيت لعبد الله النديم مادة تطبيقية لبيان العلاقة بين تحليل الخطاب والتداولية معتمدة على مفاهيم التداولية الثلاثة (السياق ــ والكفاءة ــ والفعل). وقبل البدء في الحديث عن العلاقة بين تحليل الخطاب والتداولية، توضيح بعض المفاهيم الرئيسة:

١ــ معنى الخطاب:

نال مفهوم الخطاب التعدد والتنوع بتأثير الدراسات التي أجراها الباحثون، حسب الدراسات اللغوية الشكلية والدراسات التواصلية، وبتنوع المجالات المنتجة لها، فهناك خطاب سياسي، وخطاب اجتماعي، وخطاب ثقافي، وخطاب تاريخي...إلخ.

وتشير التعريفات المختلفة للخطاب إلى أنه اللغة في حالة الاستعمال، سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة، وهو يجعل من الجملة أساسًا له بوصفها سلسلة من الكلمات، ويحيل على عناصر السياق الخارجية التي أسهمت في إنتاجه، كما أنه يهدف إلى الهيمنة عن طريق التأثير والإقناع.

٢ــ نظرية تحليل الخطاب Discourse Analysis Theory

هناك العديد من الفرضيات التي قدمها محللو الخطاب ينقل آن روبوك وجاك موشلار أكثرها دقة، وفق تعبيرهما، وهي أن "الخطاب لا يمكن أن يختزل في تسلسل جمل أو الأقوال التي تركبه. إنه كيان قائم بذاته، ووحدة أو ظاهرة طبيعية تتطلب تحليلاً مخصوصًا."[١] فالخطاب وفق هذه الفرضية بنية لسانية مستقلة يكشف عنها تحليل الخطاب بصرف النظر عما يحيط بها من سياق تواصلي. وهذا التصور ليس دقيقًا إلى حد بعيد.

فعلى الرغم من أن الخطاب لغة فإنه يتجاوز اللغة؛ لأنه أثناء تحليله ومحاولة الوقوف على طرق إنتاج الدلالة فيه، تراعى عناصر غير لغوية واضحة.[٢] فمصطلح "الخطاب من حيث معناه العام المتداول في تحليل الخطابات يحيل على نوع من التناول للغة أكثر مما يحيل على حقل بحثي محدد؛ فاللغة في الخطاب لا تعد بنية اعتباطية؛ بل نشاطًا لأفراد مندرجين في سياقات معينة ... فإن الخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف"[٣]؛ حيث يمتد تحليل الخطاب إلى العديد من فروع العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهذا الامتداد ليس فقط دليلاً على زيادة الدراسات التي تستخدم مفاهيم تحليل الخطاب وآلياته

إنما هو أيضًا دليل واضح على انتشار الباحثين في فروع المعرفة الأكاديمية المتنوعة مثل الأنثروبولوجي والتاريخ وعلم الاجتماع والتحليل النفسي وعلم النفس الاجتماعي والعلوم السياسية وتحليل السياسة العامة والنظرية السياسية وليس فقط علوم اللغة ونظرية الأدب التي استخدمت مفهوم الخطاب لتعريف مشكلات في حقول خاصة بدراساتهم وشرحها.(٤)

ويقول ديفيد هوارث David Howarth إن تحليل الخطاب مشروع ضيق جدًا يركز على التعبير الفردي أو على الأكثر محادثة بين شخصين، ويرى آخرون أن الخطاب مرادف لنظام اجتماعي تشكل فيه الخطابات واقعيًا العالم الاجتماعي والسياسي.(٥)

فتحليل الخطاب يجعل من الخطاب موضوعًا له. وتعد اللسانيات الخطابية وما يتصل بها من مفاهيم وأدوات تحليل إطارًا تصويريًا خارجًا عن الحقل اللساني، كما هو محدد في الأدبيات اللسانية بدءًا بدي سوسير وانتهاءً بتشومسكي N. Chomsky. فاللسانيات كما حددها دي سوسير مجال للعلامة (الكلمة)، وبالتالي الخطاب ليس من اختصاصها أو اهتماماتها. فالخطاب لا يمكن أن يكون موضوع دراسة لسانية خالصة، فمجال تحليل الخطاب ملتقى للعلوم الإنسانية.(٦)

فقد استحث فيرث John Firth اللغويين إلى دراسة الكلام في سياقه الموقفي؛ لكنه لم يفعل ذلك بنفسه؛ حيث ركز على دراسة الفونولوجيا، وقد تخلل هذه الفترة محاولتان منفردتان لدراسة بنية الخطاب إحداهما قامت على دراسة الخطاب المكتوب لهاريس Harris، والأخرى قامت على دراسة الخطاب المنطوق لميتشل Mitchell.(٧) فقد حاول هاريس Harris في مقاله الشهير (تحليل الخطاب ١٩٥٢م) تطبيق أسس التحليل التوزيعي على وحدة لغوية تتجاوز حدود الجملة التي وقف عندها التوزيعيون بعد بلومفيلد Bloomfield، وكانت هذه الحركة اللسانية إيذانًا بميلاد تحليل الخطاب الذي تأسس على منجزات اللسانيات الحديثة.(٨)

وينقل براون ويول G.Brown & G.Yule عن صمويل باتلر Samuel Butler تنبيهًا يجب على محللي الخطاب مراعاته ألا وهو "يجب أن ندرس كل شيء في ذاته قدر الإمكان، وأن ندرسه كذلك من حيث علاقاته. فإذا حاولنا النظر إليه في ذاته مطلقًا، وبقطع النظر عن علاقاته، فإننا سنجد أنفسنا شيئًا فشيئًا قد استنفدناه فهمًا ودراسة. وإذا حاولنا النظر إليه من خلال علاقاته فقط، فسنكتشف أنه لا توجد زاوية في هذا الكون إلا وقد احتل مكانه فيها."(٩)

فتحليل الخطاب فرع من اللسانيات لكنه ليس دراسة لسانية خالصة؛ بل إنه يربط الخطاب بالسياق التواصلي الذي شكله، أي أنه يربطه بالمحيط الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي أسهم في إنتاجه؛ لأن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية لا يتحقق إلا في سياقات الاتصال الفعلية. فللخطاب دلالات غير ملفوظة تُدرَك دون علامة معلنة أو واضحة، وقد اتجه البحث في تحليل الخطاب إلى استنباط

القواعد التي تحكم الاستدلالات أو التوقعات الدلالية، وهو ما يصل حقل تحليل الخطاب بحقل آخر هو نظرية الأفعال الكلامية Speech Act Theory.[١٠]

٣ــ التداولية:

تتعدد تعريفات التداولية لتعدد العلوم التي تتداخل معها، وقد اهتمت اللسانيات بالتداولية؛ كي تحتوي الفرضيات الكبرى التي تناولتها اللسانيات الخطابية.[١١]

تُعنى التداولية Pragmatics ــ في رأي شارل موريس Charles Morris ــ بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها[١٢]، فهي تمثل في انشغالها بعلاقة العلامات بمنتجها ومستقبلها وسياق إنتاجها وتلقيها الضلع الثالث في مثلث علم العلامات ــ وفق تصنيف شارل موريس (١٩٣٨م)ــ والضلعان الآخران هما علم التركيب (النحو)، وعلم الدلالة.[١٣]

ويرى د. محمود نحلة أن أفضل تعريف للتداولية هو "دراسة اللغة في الاستعمال in use أو في التواصل in interaction لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئًا متأصلاً في الكلمات وحدها، ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول negotiation اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما".[١٤] ويرى د. عبد الهادي الشهري أنها "دراسة الاتصال اللغوي في السياق"[١٥]. ويعرفها د. بهاء الدين مزيد بأنها "دراسة اللغة قيد الاستعمال أو الاستخدام language in use، بمعنى دراسة اللغة في سياقاتها الواقعية، لا في حدودها المعجمية أو تراكيبها النحوية. هي دراسة الكلمات والعبارات كما نستعملها ونفهمها ونقصد بها في ظروف ومواقف معينة."[١٦]

وترى د. سلوى الشرفي أن التداولية تختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة، ووصف وظائف الأقوال اللغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام. فالتداولية تدرس العلاقة بين النص وسياقه. وهي منهج لساني يهتم بدراسة اللغة في حيز الاستعمال؛ لذلك لا تهتم باللفظ بل تهتم بالملفوظ (فعل القول)؛ لأن القول أو التلفظ يتضمن حضور المتكلم وبالتالي وجود عملية تأويل.[١٧] فالتداولية إذًا هي دراسة اللغة في حالة الاستعمال بغير معزل عن سياقاتها الخارجية.

وتطورت التداولية ضمن مجموعة من المقاربات اللغوية من بينها تحليل الحوار وتحليل النص وتحليل الخطاب بوصفها امتدادًا طبيعيًا لأطروحات النحو الوظيفي التي طورها هاليداي Halliday. ومن مقدمات التداولية نظرية أفعال الكلام كما طورها جون أوستن J. Austin (١٩٥٥م) وجون سيرل J. Searle، والمبدأ التعاوني عند جرايس Grice. حتى إذا استوت التداولية وتحليل الخطاب (مترادفين أو متمايزين أو متداخلين) على سوقهما، نشأت الحاجة إلى منظور نقدي سياسي؛ فكان التحليل النقدي للخطاب وتحليل الخطاب السياسي.[١٨]

يدرس البحث التداولي أربعة جوانب هي: الإشاريات، والافتراضات المسبقة، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية.

٤ – العلاقة بين تحليل الخطاب والتداولية:

يدمج البعض تحليل الخطاب في التداوليات لاحتوائه على مفاهيم ومعارف وتصورات غير لسانية كالتداوليات.

يرى فان دايك أن تحليل الخطاب لا يعد بحد ذاته منهجًا، "بل هو مجال للممارسة العلمية يتوزع بين ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية كلها"[١٩]؛ لذا فقد أطلق على هذا الميدان من المعرفة اسم "دراسات الخطاب".

لدراسات الخطاب مناهج متنوعة للدراسة، اعتمادًا على أهداف الدراسة والاستقصاء، وطبيعة البيانات المدروسة، واهتمامات الباحث ومؤهلاته، وغيرها من العوامل المتغيرة في سياق البحث من طرائق دراسة بنى النص واستراتيجياته، مثل: التحليل التداولي لأفعال الكلام والأفعال التواصلية.[٢٠]

فتفرض المقاربة التداولية نفسها على الخطاب، وليس المقاربة اللسانية الصرف؛ فمقبولية الخطاب مرهونة بسياق استقباله وإنتاجه، والخطاب ليس معطيات لغوية وبنيات تركيبية، ولكن صيرورة معرفية وتواصلية، مما يحتم على اللسانيات أن تترك مجال الخطاب للتداوليات.[٢١]

فـ"الخطاب لا يحلل بوصفه لفظًا مستقلاً بذاته فحسب، بل بوصفه كذلك تفاعلاً موقفيًا، أو ممارسة اجتماعية، أو نوعًا من التواصل في موقف اجتماعي أو ثقافي أو تاريخي أو سياسي محدد ... فيهتم بوصف الجوانب ذات الصلة بالأحداث التواصلية كعنصري الزمان والمكان، والظروف الخاصة والمحيطة بالخطاب، والمشاركين واتصالاتهم وأدوارهم الاجتماعية، فضلاً عن الأنشطة المتنوعة الأخرى التي تنجز في الوقت نفسه.[٢٢]

وعن البعد التداولي لدراسة الخطاب، فإن أي خطاب يهدف إلى التأثير، وفعل التأثير لا يأتي منعزلاً عن الفعل التلفظي والإنجازي، ويتجسد هذا في أفعال الكلام، والتداولية التي هي استعمال للعلامات من طرف المتواصلين، وبخاصة العلامات اللسانية إلى جانب العلامات غير اللسانية. ويتحقق الفعل الكلامي في سياق محدد عن طريق معطيات زمانية ومكانية واجتماعية وتاريخية، ويرتبط بذاتية المتلفظ، فعندما يتحدث المرسل فإنه يؤدي أدوارًا، ويتموقع بالنسبة لغيره، ويعبر عن علاقات قصدية إزاء الأشخاص وإزاء العالم الذي يعيش فيه.[٢٣]

فالبعد التداولي لدراسة الخطاب يقصد به تحليل الجملة على أساس أنها وسيلة لغوية يُنجز باستخدامها أفعال معينة، بالإضافة إلى كونها تحوي إشارة إلى خبر أو موضوع. ويضيف البعد التداولي للتحليل قيمًا خاصة نابعة من قدرتنا على أن ننجز أفعالاً باستخدام الكلمات.[٢٤]

وأما ما تُعنى به هذه الدراسة فهو العلاقة بين التداولية وتحليل الخطاب، فنجد أن تساعد التداولية محللي الخطاب على الفهم الدقيق لمقصدية التواصل المدمجة فيها مختلف الأبعاد، وتستعين في مقارباتها بمفاهيم ثلاثة (الفعل، والسياق، والكفاءة).[٢٥]

وتعد تداولية أفعال الكلام Speech Acts التي طورها كل من أوستن وسيرل تعد من أهم الدعائم اللسانية التي ساعدت على نمو نظرية تحليل الخطاب وازدهارها؛ فقد "قامت اللسانيات التداولية على تحليل مقاميات الخطاب ومقاصده؛ إذ عنيت بدراسة معاني المنطوقات في علاقتها بالمتكلم، ودراسة الاستلزام الحواري، ودراسة كيفية كون الاتصال شيئًا أوسع من مجرد القول، ودراسة الشروط التي تجعل المنطوقات مناسبة وناجحة إنجازيًا، ودراسة العلاقة بين أفعال الكلام وسياقاتها غير اللغوية."[٢٦]

فقد نظرت تداولية أفعال الكلام إلى الكلام بوصفه فعلاً لغويًا Speeh act يدل على قصد المتكلم، وأثبتت أنه لا يمكن إدراك المعاني الحقيقية للمنطوقات اللغوية إلا في سياقات الاتصال الفعلية.

الدراسة التطبيقية:

من النماذج التي يمكن أن نتبين فيها التحليل التداولي للخطاب، المقال الافتتاحي لعبد الله النديم (١٨٤٢– ١٨٩٦) في العدد الأول من جريدة "التنكيت والتبكيت" ٦ يونيو ١٨٨١ التي عرض سياسته في الجريدة؛ ليحظى بقبول المتلقين، ويتمكن من التأثير فيهم، ومن ثم تغيير سلوكياتهم وعاداتهم الاجتماعية في الواقع.

أصدر النديم جريدة التبكيت والتنكيت جريدةً نقدية تحمل على الحكام والأجانب، وتنقد أوضاع المجتمع المصري، وتدافع عن شعبها ولغتها ودينها.[٢٧]

نظرًا لأن الأدوات الإجرائية في التداولية تهدف إلى كشف قصد المرسل في خطابه، فالتداولية حاضرة في كل تحليل لغوي.

وستحاول الدراسة الكشف عن قصد النديم، وكيفية تحقيقه لهذا القصد، ومدى نجاحه في الوصول إلى ذلك القصد، من خلال دراسة السياق، والفعل الكلامي، والكفاءة.

أولاً: السياق:

السياق هو الموقف الفعلي الذي توظف فيه الملفوظات، والمتضمن بدوره لكل ما نحتاجه لفهم ما يقال وتقييمه.[٢٨] ولفهم مقصود النديم من خطابه لا بد من دراسة عناصر السياق.

وعناصر السياق الذي أنتج خطاب النديم تتمثل في:

١. **المرسل:** عبد الله النديم هو من أدباء مصر وشعرائها وزجاليها، وخطيب الثورة العرابية.. كتب مقالات في جريدتي "المحروسة" و"العصر الجديد"، ثم أصدر جريدة "التنكيت والتبكيت"، بعد قيام الثورة العرابية في ٩ سبتمبر ١٨٨١ أخذ النديم يجوب الأقاليم مع أحمد عرابي خطيبًا للثورة ومبشرًا

بمبادئها، واستعاض عنها بجريدة "اللطائف" التي أعلن فيها جهاده الوطني. لعب النديم دورًا مهمًا بعد سقوط مصر في قبضة الاحتلال الإنجليزي. وأنشأ كذلك جريدة "الأستاذ"، نفي بعد أحداث الثورة العرابية خارج مصر، وبعد عودته نفاه الإنجليز مرة أخرى، وتوفي في الأستانة. من كتبه الساق على الساق في مكابدة المشاق، كان ويكون، النحلة في الرحلة، والمترادفات.

٢. **المرسل إليه:** حدد النديم المرسل إليه المعني بخطابه في مستهل مقاله "إلى النبهاء والأذكياء من أبناء نجدة اللغة العربية الشريفة" وهؤلاء هم من يلتمس منهم النديم التفاعل مع جريدته الجديدة بأفكارهم ومقالاتهم.

أما المرسل إليه المعني بتلقي مقالات النديم التي تحمل طابع النقد الاجتماعي فقد حددهم بقوله "أيها الناطق بلغة الضاد"؛ أي أن خطابه موجه لسائر المصريين الناطقين بالعربية، فخطابه للمصريين كلهم العامة والصفوة، المتعلمين وغير المتعلمين، المثقفين والبسطاء، فالمصريون بسائر طبقاتهم وشرائحهم هم المستهدفون بخطاب النديم قي صحيفة "التبكيت والتنكيت".

٣. **السياق الثقافي والاجتماعي للخطاب:** كان المجتمع المصري في تلك الفترة متأثرًا بالتغيير الذي طرأ في عصر إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩م)؛ فقد أخذت الهيئة الاجتماعية المصرية تتطور إلى حالات جديدة، وتقتبس من أساليب المجتمع الأوروبي وعاداته، ومال الناس إلى محاكاة الأوروبيين في المسكن والملبس والمأكل وسائر أنماط الحياة، وكانت الطبقة المتعلمة في طليعة الطبقات في تقليد الأوروبيين واقتباس عوائدهم وأساليبهم، فأخذ الناس من كل ذلك مزيجًا من النافع والضار.[٢٩]

وقد ابتلي المجتمع المصري على أثر ذلك بعدد من الآفات التي دخلت إليه على أيدي الأجانب والأغنياء والمتعلمين، ثم سرت إلى الطبقات الجاهلة؛ فعمَّ الفساد، وحدث اختلال اجتماعي خطير، ومنها قيام بعض المصريين بشرب الخمر والمخدرات، والمقامرة، وارتياد بيوت البغاء تحت دعوى الحرية الشخصية وتقليد الأوروبيين.[٣٠]

٤. **الرسالة:** هدف النديم بإصداره "التنكيت والتبكيت" إلى توعية عموم المصريين ومكاشفتهم بعيوب مجتمعهم ليتخلصوا منها. فإنه يرى أن التخلص من هذه النقائص والمثالب هو الطريق لاستعادة أمجاد الوطن والنهوض به. وهو هدف عام، يتفرع منه أهدافه خاصة، تتغير بتغير المتلقين، فالهدف من مخاطبة الفصحاء والنبهاء أن يشاركوه بالكتابة والآراء لينشرها في جريدته، والهدف من مخاطبة العامة تنبيههم إلى النقائص التي اجتاحت مجتمعهم ليتخلصوا منها، ويستعيدوا أمجاد الماضي.

فيقول النديم مخاطبًا متلقي جريدته متحدثًا عن هدفه منها: "وساعدوه بأفكار توسع دائرة التهذيب، وتفتح أبواب الكمال...وتبكيت ينادي بقبح الجهالة وذم الخرافات، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة في الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل"[٣١].

٥. **اللغة المستخدمة:** حرص النديم على أن تكون لغته سهلة بسيطة ملائمة لعامة المصريين، قريبة لأفهامهم. وقد وصف اللغة التي سيوظفها في مقالاته بقوله: "إنما هي صحيفة أدبية تهذيبية تتلو عليك حكمًا وآدابًا ومواعظ وفوائد ومضحكات، بعبارة سهلة لا يحتقرها العالم، ولا يحتاج معها الجاهل إلى تفسير ... ليست منمقة بمجاز واستعارات، ولا مزخرفة بتورية واستخدام، ولا مفتخرة بدقة قلم محررها وفخامة لفظه وبلاغة عبارته ... ولكنها أحاديث تعودنا عليها، ولغة ألفنا المسامرة بها لا تلجئك إلى قاموس الفيروزآبادي، ولا تلزمك مراجعة التاريخ، ولا نظر الجغرافيا، ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها، ولا شيخ يفسر لك معانيها..."(٣٢)

٦. **القناة:** يبث النديم رسالته عبر جريدة، فخطابه مكتوب، وعلاقته بالمتلقين علاقة غير مباشرة؛ لذا يضع قواعد بينه وبين القراء يحددها ويفصلها في هذا المقال الافتتاحي؛ كي لا يساء فهمه من قِبَلهم، أو يشكك في نواياه وأغراضه.

من خلال دراسة عناصر السياق المنتج لخطاب عبد الله النديم نتبين:

إدراك عبد الله النديم لمقاصد خطابه تمامًا –التي تغيرت بتغير المتلقين–، فكان قبل حديثه يحدد نوعية المتلقين المقصودين بخطابه.

آليات عرض خطاب النديم ملائمة لنوعية المتلقين؛ الأمر الذي أسهم في إنجاح عملية التواصل، فاللغة المستخدمة سهلة قريبة لأذهان المتلقين على اختلاف ثقافاتهم.

ثانيًا: الفعل الكلامي:

يستعمل الإنسان اللغة لا لينتج كلمات دالة على معنى، بل ليقوم بفعل، فأفعال الكلام هي الملفوظات المتحققة فعلاً من مستعمل اللغة في موقف معين ومحدد، دون إغفال للملابسات. وتنقسم إلى أفعال إنجازية، تقرن الإنجاز بالتلفظ، وهي الإنشائيات. وأفعال تقريرية (واصفة) تصف حالة علم مستقل عن التلفظ ذاته.(٣٣)

ولكل فعل قوة إنجازية تحدد الغرض الذي يقصده المتلفظ كالإخبار أو السؤال أو الأمر أو التمني أو النهي وغير ذلك، ويمكن استخلاصها بوضوح من السياق اللغوي أو السياق المقامي.(٣٤)

وفيما يتعلق بتحليل الأفعال الكلامية لبيان قوتها وأغراضها الإنجازية:

استخدم النديم إخباريات ليثبت أن منطوقاته تقدم شيئًا، وتتوافق مع العالم. والحالة النفسية التي يعبر عنها هي الاقتناع بأن شيئًا محددًا في الحال.

ــ فيقول مخاطبًا المتلقين: "**أظنك** لو تدبرت أمرك لاستحييت من مقابلة من لم يولد في أرضك، وعلمت أنك في احتياج إلى مهذب يرشدك، ومؤدب يوقك عند حدودك، ومنبه يوقظك من غفلة الكسل ونومة الإهمال، على أنك أهل الذكاء ورب البلاغة ومنبع المعارف ومبتدع الصنائع، ولكنك جهلت تاريخك."(٣٥)

فقوله مخاطبًا المتلقين (أظنك) يعبر عن اعتقاده وتيقنه بأن المتلقي غير راضٍ عن أحواله التي أثرت بالسلب على أحوال مجتمعه، ومن ثم أحوال مصر بأسرها، وقد اختار الفعل (ظن) الذي يحمل دلالتين متناقضتين هما العلم والاستيقان، وعدم اليقين والشك(٣٦)، في محاولة منه للتقرب إلى المتلقين، فهو يستعمله بمعنى الاعتقاد الجازم، وقد يتلقاه المتلقون بمعنى الشك، فيتقبلون كلامه بصدر رحب.

ــ "**أتقدم** إليك بخدمة وطنية دعاني إليها حبي فيك وخوفي عليك ..."(٣٧)

قوله (أتقدم) يقرر به أن دافعه لإصدار الجريدة دافع وطني خالص، ويهدف به أيضًا إلى إعلام المتلقين وإخبارهم بالغرض الذي أنشئت لأجله الجريدة.

استخدم كذلك إنشائيات ذات أغراض توجيهية. والتوجيهات تعمل على حمل السامع على فعل شيء ما، حتى يتوافق العالم مع المنطوق، وتكون الحالة الداخلية الموافقة هي التمني أو الالتماس أو التحذير أو غيرها.

نحو قوله داعيًا المتلقين من البلغاء والنبهاء إلى المشاركة في تحرير مقالات الجريدة:

ــ "إليكم يراعي **فاستخدموه** في مقترحات أفكاركم العالية، وصحيفتي **فاملأوها** بآدابكم المألوفة ... **فشدوا** عضد أخيكم بالقبول والإغضا عن العيوب، و**ساعدوه** بأفكار توسع دائرة التهذيب، وتفتح أبواب الكمال، **وكونوا** معي المشرب الذي التزمته".

فالإنشاء الطلبي ذو الغرض التوجيهي (استخدموه، املأوها، شدوا، ساعدوا) يلتمس فيه من المتلقين أن يستجيبوا لندائه، ويساعدوه في تحقيق ما ينشد لهذه الجريدة، فيقترحوا الأفكار المفيدة، وينقدوا ما يكتب نقدًا بناءً يسهم في تحقيق هدفه من الجريدة.

وقوله في سياق توجيهه للقراء لمطالعة جريدته بعناية:

ــ"**فاجعل** لها نصيبًا من عمرك الجليل، و**متعها** بنظرة تجلو مرآتها وتبصر خباياها، **ولا تفوق** سهام الرد قبل أن تدخل معها المضمار، **ولا تنكر** عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ..."(٣٨)

تعدد مقاصد الكاتب من هذه الإنشائيات التوجيهية، فهو بقوله (اجعل، متعها) مستخدمًا فعل الأمر يلتمس من المتلقين ويتمنى منهم أن يعتنوا بقراءة جريدته، والتنبه لما تحتويه من حض على التحلي بالأخلاق الحميدة، والتخلي عن الآفات المفسدة للمجتمع.

وقوله (لا تفوق، لا تنكر) نهي يحذر فيه المتلقين من سوء فهمه، أو استباق الأحكام على ما يكتب، أو تصيد الأخطاء، فإنه بكتاباته إنما يهدف إلى إصلاح مجتمعه ووطنه، لا انتقاده أو السخرية منه.

ثالثًا: الكفاءة:

يقصد بها إنجاز الفعل في السياق أو بصياغة مغايرة مبسطة، وهي حصيلة إسقاط محور الفعل على محور السياق، وهذا الإسقاط يختلف المتكلمون في مستوياته ودرجاته، وبناءً عليه تتحدد كفاءتهم التواصلية.(٣٩)

وفيما يتعلق بتحليل الكفاءة:

نجد أن النديم قد حرص على التضامن مع المتلقين والتقرب إليهم مستخدمًا لذلك عددًا من الإشاريات الشخصية، وذلك نحو قوله: "إليكم يراعي فاستخدموه ... صحيفتي فاملأوها ... شدوا عضد أخيكم"، و"... دعاني إليها حبي فيك، وخوفي عليك".

فقد وظف ضمير الخطاب (الكاف)، وضمير المتكلم (الياء)؛ ليدلل على حبه للمتلقين وحرصه عليهم، وتضامنه معهم؛ ليؤثر فيهم فيتقبلوا ما يأتي به من نقد اجتماعي ويعملوا على تغييره.

كما أنه حرص على مراعاة المتلقي والرد على ما قد يخطر بباله من أفكار قد تجول بخاطره وقد تؤدي إلى إعاقة وصول رسالة النديم إليه واضحة سليمة.

"**ولا تظن** مضحكاتها هزءًا **بنا**، ولا سخرية **بأعمالنا**، فما هي إلا نفثات صدور وزفرات يصعدها مقابلة **حاضرنا بماضينا**، فإن صدقت في الخدمة فأجري منك المساعدة، وإن قصرت فقد بلغت جهدي وصرفت ما في إمكاني، فإن شئت عذرت، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك في ميدان يكبو فيه جوادي".

وظف الفعل الإنجازي ذا الغرض التوجيهي (لا تظن) ليحذر المتلقين ويلتمس منهم ألا يظنوا بما يكتبه سخرية من المصريين واستهزاءً بهم. ثم وظف الإشاريات الشخصية (ضمير "نا") ليؤكد تضامنه مع المتلقين، وأنه واحد منهم، جميعهم مصريون، يفتقرون إلى التنبه لأخطائهم من أجل العمل على إصلاحها.

بعد أن وضح النديم مراده وطريقته في النقد الاجتماعي كي لا يساء فهمه، بدأ في النقد والتبكيت وهو مطمئن لعدم تشويش رسالته.

"مخالب المصائب التي أوقعك فيها **جهلك، وبعدك عن التبصر** في العواقب، و**إهمالك** في حقوق الوطنية وواجبات الإنسانية". "ولكنك **جهلت** تاريخك".

فقد قام بتبكيت المتلقين ونقدهم نقدًا لاذعًا قد يؤدي إلى غضبهم والإعراض عنه وعدم الاستجابة له، لكنه ضمن عدم حدوث ذلك؛ لأنه كان قد بَيَّن منهجه من قبل، وبيَّن أن نقده للمصريين نقدًا ذاتيًا لأنه واحد منهم.

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها:

- التداولية حاضرة في كل تحليل لغوي؛ حيث إن أدواتها الإجرائية تهدف إلى الكشف عن قصد المرسل.
- كان عبد الله النديم مدركًا أهداف خطابه تمامًا، فكان قبل حديثه يحدد نوعية المتلقين المقصودين بخطابه.

- تنوعت الأغراض الإنجازية لخطاب النديم، فمنها ما هو تقريري لإقناع المتلقين بصدق نواياه. ومنها ما هو توجيهي ليعبر عن التمني والالتماس والتحذير.
- وظف النديم عددًا من الأدوات اللغوية التي أسهمت في التأثير في المتلقين وإنجاح عملية التواصل، مثل: التضامن مع المتلقين باستخدام الإشاريات الشخصية، والمكاشفة.
- لجأ عبد الله النديم إلى عدد من الوسائل لتحقيق أهدافه من الخطاب، منها:

١. مراعاة السياق.

٢. تقوية المنطوقات إنجازيًا.

٣. التضامن مع المتلقين.

الهوامش

([1]) آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم (علم جديد في التواصل)، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٠٧.

([2]) نواري سعودي أبو زيد: المنهج التداولي في مقاربة الخطاب، فصول (٧٧)، ص١٢١.

([3]) دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص٣٨.

([4]) Howarth, David: Concepts in The Social Sciences (Discourse), Open University Press, Buckingham.2000, p.1.

([5]) Ibid, p.2.

([6]) مصطفى غلفان: اللسانيات وتحليل الخطاب: أية علاقة (تساؤلات منهجية)، فصول (٧٧)، شتاء ــ ربيع ٢٠١٠، ص ٦١، ٦٢.

([7]) Coulthard, Malcolm: An Introduction to Discourse Analysis, Longman, England, 1983, p.3.

([8]) مصطفى غلفان: اللسانيات وتحليل الخطاب، ص٥٧.

([9]) ج.ب. براون وج. يول: تحليل الخطاب، ترجمة: محمد لطفي الزليطني ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٧م، ص ك.

([10]) ميجان الرويلي وسعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص١٥٥.

([11]) مصطفى غلفان: اللسانيات وتحليل الخطاب، ص٥٩.

([12]) آن ربول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص ٢٩.

([13]) راجع: بهاء الدين مزيد: تبسيط التداولية، ص١٩، وآن ربول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص٢٩.

([14]) محمود نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص١٤.

([15]) عبد الهادي الشهري: استراتيجيات الخطاب، ص٢٢.

([16]) بهاء الدين مزيد: تبسيط التداولية، ص١٨.

([17]) سلوى الشرفي: تحليل الخطاب (الرسائل السياسية في وسائل الإعلام)، ص١٥٢، ١٥٤.

([18]) بهاء الدين مزيد: تبسيط التداولية، ص٢٠. ولمزيد من التفصيل راجع آن ربول وجاك موشلار: التداولية علم جديد في التواصل، ص ٢٩–٣٥.

([19]) فان دايك: الخطاب والسلطة، ترجمة: غيداء العلي، مراجعة: عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٤، ص٣١.

([20]) فان دايك: الخطاب والسلطة، ص٣٢.

([21]) مصطفى غلفان: اللسانيات وتحليل الخطاب، ص٦٢.

([22]) فان دايك: الخطاب والسلطة ص٣٤.

([23]) ذهبية حمو الحاج: التحليل التداولي للخطاب السياسي، مجلة الخطاب، ع (١)، ٢٠٠٦م، ص٢٤٠.

([24]) باسل حاتم وإيان ميسون: الخطاب والمترجم، ص٨٦، ٨٧.

([25]) نواري سعود، ص١٢٦.

([26]) محمد العبد: النص والخطاب والاتصال، ص٢٧٧.

([27]) التنكيت والتبكيت (من تراث عبد الله النديم)، تقديم: عبد العظيم رمضان، ص٤.

([28]) نواري سعود، ص١٢٨.

([29])عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٨٢، ٢٩٧/٢.

([30]) راجع السابق ٢٩٧/٢، وعزت قرني: تاريخ الفكر السياسي والاجتماعي في مصر الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ٢٠٠٦، ص٣٧٢، ٣٧٣.

([31]) التنكيت والتبكيت، ع (١)، ص٣٥.

([32]) التنكيت والتبكيت، ع (١)، ص٣٦.

([33]) نواري سعود: ص١٢٦، ١٢٧.

([34]) يحيى بعطيش: الفعل اللغوي بين الفلسفة والنحو، ص٩٨.

([35]) التنكيت والتبكيت، ع (١)، ص٣٧.

([36]) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مادة (ظنن).

([37]) التنكيت والتبكيت، ع (١)، ص٣٦.

([38]) التنكيت والتبكيت، ع (١)، ص٣٦، ٣٧.

([39]) نواري سعود: ص١٢٨.